بين عامين :

نشـــــيد الوداع...

للأستاذ علي الطنطاوي

(١) مالت الشمس الى المغيب ، ولم يبق من أشعّتها الذهبية إلاّ خيوط قليلة ، تنفذ من بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق . . . تلقي على العالم نظرة الوداع ، وتقبل جبينه الخاشع قبلتها الأخيرة . . ثم تجود بذمائها الباقي ، وتلفظ نفسها الأخير — كما يلفظ نفسه هذا العام الراحل !

(٢) وكنت أطلّ من شرفة منزلي — ومنزلي في شارع بغداد : على شاطىء الغوطة ، مغنى الفساسنة ، وجنّة الدنيا ، وملهمة الشعر شعراء العرب الأقدمين — أطلّ على بساتينها الفيحاء ، وجناتها الواسعة ، التي تحف به من جهاته الأربع ، فأرى الكون في حزن وكآبة ، وأرى على وجهه صفرة تبدو على أوراق الخريف الذاوية الهشيمة ، وفي عينيه دمعة تترقرق ، تلوح في ظلّيات هذا المزن الرقراق ، وأسمع لقلبه وجيباً ، يسمع من هذه الأغصان التي يتلاعب بها النسيم . . . ثم أنظر إلى نفسي ، فأرى فيها عالماً آخر . . . ولكنه مفعم بالكآبة والغمّ ، كذلك العالم !

(٣) أطلت التحديق في هذه المشاهد — فلم تنفرج لي شفتاها عن الابتسامة التي أحنّ إليها وأرقبها . . . وكنت قد عزمت على المضيّ في هذا التحديق ، حتى أرى هذه الابتسامة ، فأحتفظ بها بين أحناء ضلوعي ، وفي مثوى الذكريات من نفسي ذكرى سارّة ، تخفف من لوعة الذكر الكثيرة المؤلمة لهذا العام الراحل . . . ولكنّ عزيمتي قد ونت ، وأيقنت أن قلبي المحطّم اليائس لا تشرق عليه أشعّة الابتسامات

(٤) دنت قافلة الحياة السائرة في بيداء الزمن من محطها ، فتباطأت في سيرها ، وقاربت خطوها ، فأمسيتُ أشعر بطول هذه الساعات الباقية في عمر العام ، ورحت أرقب عقرب الساعة الماثلة أمامي ، فلا أراه يتحرك . . فضجرت وتألمت ، وأحسست كأن هذا الفلك يدور وهو عاتق . . .

(٥) . . . بعد ساعة واحدة يتم الفلك دورة جديدة من دوراته التي لا تحصى . فلا يترك بعدها إلاّ أنقاضاً مهدّمة ، وأجساداً محطمة ، وقلوباً مهشّمة ، كأنما هو رجى تطحن الأمم والشعوب . . ثم يخرج منها النداء أن : لِدُوا وابنوا وأمّلوا . . ولكن للموت والخراب واليأس !

بعد ساعة واحدة ، ينقضي هذا العام ، فتبتلعه هوة العدم ، ويفتح الماضي ذراعيه ، ليضمّه إلى الأعوام الكثيرة التي مرّت من قبله ، ويؤلفها (رزمة) واحدة ، ثم يلقيها في بحر الأبدية . . ثم تفنى عند جلال الله الباقي

بعد ساعة واحدة ، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد ، ثم يذهب فيتبوّأ مكانه من عالم العدم !

(٦) بعد ساعة واجدة تختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين ، لتفتح صفحة أخرى ، لا ندري عنها شيئاً ، ولكنّ فيها ألم وفيها سرور ، وفيها أمل وفيها خيبة ، وفيها ضحك وفيها بكاء . . . . والقدر يضحك أبداً من هذا الانسان ، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم !

وما الانسان إلاّ عدوّ الانسان . .

يكتب القوي سيرة حياته ، ويملأها بآيات التبجيل والثناء ، ولكن مدادها دموع الأشقياء ، ودماء الأبرياء . . ؛ وينشىء القوي صرح مجده ، ويرفع ذرى عظمته ، ولكن أساسه جماجم المظلومين ، وعظام الشهداء ؛ ويملأ القويّ بالذهب خزائنه ، ولكن دراهمها قد جمعت من أيدي اليتامى ، وأفواه الفقراء

(٧) بعد ساعة واحدة ، تحط القافلة رحالها ، فتلتفت إلى الوراء فلا ترى إلا ظلاماً ، يلمع في وسطه نجم من الذكرى ،

في البلاد ثالثة أعلام النهضة ، فبجانب (مصنع الحلة) في ميدان الاقتصاد ، و (مستشفى المؤاساة) في عالم البر والتعاون ، تقوم (الرسالة) حمى الأدب العربي وتراث الاسلام

واذا كان الله تعالى أكرم البلاد بهذه المجلة ، فقد أكرم المجلة بثوب الأخلاق الكريمة الذي أضفاه على صاحب الرسالة ، ولن تنجح رسالة بغير خلق

فالى الأمام أيها الصديق ، وإلى الأمام يا خير الصحف . إنما عيد الرسالة عيد للثقافة العالية ، والدين القويم ، والخلق الكريم

محمد محمود جبول
المحامي

تتبين فيه (العلم المربع الألوان) وهو يخفق على دمشق ... فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى ، ومرارة الفقد ! فنحول أبصارنا إلى الأمام فلا نرى إلا الظلام . ولكن . . ما هذا النور الذى ينبعث من الأرض فيذهب صعداً فى السماء ، فيهدينا الطريق ، ويترع نفوسنا قوّة وأملاً ؟ لقد علمت : هـذا بريق الدماء التى سقينا بها صحراء ميسلون ، وجنان الغوطة ، لقد علمت : لا يزيح ظلمة المستقبل ، إلا هذا النور . . الأحمر !

(٨) تزين الناس وابسوا أحسن ثيابهم ، وراحو يهنئ بعضهم بعضاً ، لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع ، والبيوت والمجامع ، لقد ناءت برسائلهم قطر البريد ، حتى ما ترى حيثما كنت إلا ثغوراً تبسم ، وما تسمع إلا مقالة تقال : كل عام وأنتم بخير . كل عام وأنتم بخير . . .

غير أنى لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(٩) فيم الهناء ؟ وعلام السرور ؟ . . أيهنأون بتلك الأرواح التى دفعناها ثمن الحرية ، فكان للبائع الثمن والبيع ؟ أم بالنفوس الكبيرة التى أزهقها الأقوياء ، أم بالمنازل التى خرّبوا ؛ أم بالدور التى أحرقوا ، أم بالحق الذى غصبوا ، أم بالحرمات التى انتهكوا ؟ . . . أم بالأزمة العامة ، والتجارة الكاسدة ، والصناعة العاطلة ، والزراعة البائرة ، والأخلاق الضائعة ، والرجولة المفقودة ، والحدود المستباحة ، والجهالة المنتشرة ؟ . .

أما إن أشد البلاء ، ألاّ نشعر بالبلاء ! وأكبر المصيبة أن نجهل أنها المصيبة ! فما لهؤلاء الناس وماذا اعتراهم ؟ أيفرحون بهذا كله ؟ . . .

إنى لا أفقه من هذا كله شيئاً !

(١٠) عزفت عما فيه الناس ، ورحت إلى شرفتى كئيباً ، وكان الظلام قد ملأ الكون ، كما ملأ جوانب نفسى ، فغشينى ذهول عميق ، وانطلق لسانى يقول :

* * *

أيها الراحل المودع !

لقد كانت لنا آمال ، صببناها على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك ، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقق ارتقبنا بها يوماً آخر ، وهذا يوم لا آخر له ، فأخبرنا عن آمالنا ، ماذا صنعت بها ، أدست عليها فحطمتها وقطعت طريقك على رفاتها ؟

أيها الراحل المودع !

لقد أودع أسلافنا عند أسلافك أمانة ، هى المجد العربى ، والعزة الاسلامية ، فضاعت فى بيداء الزمن ، وانطلقت الأعوام وانطلقنا وراءها نفتش عنها وننشدها ، ولن نبى مابقى فى الزمان عام ، وبقى منا إنسان ، فأخبرنا هل مررت عليها ، وهل عرفت أى عام يحملها الينا ؟ . . .

أيها الراحل المودع !

إنك ستجتمع فى عالم الأبدية بالأعوام التى سبقتك ، ومرت بنا قبلك ، فهل لك إذا اجتمعت بعام الدماء والدموع ، عام الثورة . . . أن تبلغه سلامنا وتحياتنا ، هل تحمل الى تلك الأرواح الطاهرة شوق أبنائها وإخوانها ؟ . . ألا قل لها تهدأ وتطمئن ، فانا لن ننسى ، لن ننسى . . . إن ذكرى الدم المسفوح لاتنسى أبداً !

وبعد يا أيها الراحل المودع !

أنبئنا ماذا يحمل هـذا القادم المسلم ، هل يحمل الينا تحقيق الآمال وبلوغ الأمانى ؟ أم يحمل الشقاء والخراب والفقر والآلام والدموع والدماء ، كاخوانه الـ . . خمسة عشر عاماً ، التى مرت على سورية ؟

أنظر ماذا خلفت فينا ، أنظر الى مدينتنا ، لقد جعلتها — فى ظل المتمدنين — أطلالاً وخرائب ، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين . . . انظر هذه هى خرائب الدرويشية والميـــدان ؛ وهذه قلاع الزّة وقاسيون . . .

ولكن لابأس أيها العام لابأس ؛ إن أرضاً تسقى بـ (الماء الأحمر !) لابد أن تنبت (الحرية الحمراء) ... وإننا لن نيأس أبدا

* * *

وأفقت من ذهولى ، وكان وهن من الليل ، وكانت اللحظة الأخيرة من العام الراحل ، فأرسلت فى فضاء الله الواسع زفرة طويلة ، ثم رفعت رأسى شطر السماء وقلت :

— سبحانك لا اله إلا أنت . . هذا قضاؤك يا الله !

وتبددت اللحظة الأخيرة من العالم ، تبدد الحروف الأخيرة من مقالتى ، ولم يبق فى الوجود ، إلا ... اسم الله

باسم الله نستأنف العمل ، والله المستعان ! ؟

على الطنطاوى